قصة قصيرة

سيل من الرماد

عبد الرحمن مجيد الربيعي

- ١ -

تتحرك سيارته قاطعة ذلك الطريق الذي خبره جيداً لكثرة ما تردد فيه. كانت عيناه على ساعته، تتأملان عقربيها كل لحظة، يستعجل الزمن من أجل أن يصل في الوقت المحدد ليصافح تلك الإطلالة البيضاء التي أدمن مرآها كل يوم.

وعندما وصل المكان عاود النظر إلى ساعته، ما زال هناك بعض الوقت. رفع نظارتيه من فوق عينيه أول الأمر ثم مسحها باعتناء وأعادها إلى مكانها. لقد ضعف بصره منذ سنوات، منذ الطفولة حيث القراءة على مصباح نفطي تمتد ذؤابة الضوء فيه منتهية بخيط دخان رفيع، ترتفع إلى أعلى ثم تتلقفها الكوة المزروعة في الحائط وتشتّتها في أرجاء البيت. ثم جاءت الأيام الأخر، المطاردات والاصطدامات، المظاهرات والهتافات، وعرف يومها الاعتقال، حشروه لأول مرة في غرفة لا يتعدى طولها المترين مع أكثر من ثلاثين من رفاقه. كانت الغرفة التي سموها معتقلاً لا تسعهم لذا يتناوبون النوم والوقوف، الاختناق، هكذا كان يصرخ من قلبه ويتمتم بكلمات الشعر التي حفظها لتكون له تميمة وملاذاً في عالم الصخب والرماد.

وتتالت المحن والتجارب وأخذ الضوء المشع ينطفىء تدريجياً في هاتين العينين السوداوين اللتين كانت أمه تداريها في صباه وتضع فيهما الكحل لتحارب الرمد وعيون الحاسدين.

يفتح آلة التسجيل وينطلق صوت جنوبي قادم من هناك، من أعماق الأهوار وحفيف البردي وهوسات الصيادين وهم يشقّون الماء بمشاحيفهم الصغيرة بحثاً عن الطيور والأسماك.

- ٢ -

ها هي تأتي، طلّة ناصعة، تقترب منه، تتفتح زهرة القلب، تورق بعد ذلك الموت الطويل، انها مرفأ الأمان، ودواء التعب والخذلان في هذه المدينة البعيدة، تبتسم له، تكبر الابتسامة كلما اقتربت منه، من أين لك هذا الصفاء؟ كيف استطعت أن تبقي بريق الطفولة في عينيك؟ كيف ابتعدت بها عن كل المحن والهواجس؟ عن الظنون والآمال الكسيرة؟ وها أنت كما أنت نخلة صغيرة، أم شجرة ورد؟ باقة حنان؟ أم ظل من الحرير والعطر؟

يفتح لها الباب فتدلف لتجلس بجانبه.

- ٣ -

ها أنتما الآن معاً، تتهادى بكما السيارة في الدرب الخالي، لقد هربتما من الزحام، تودّان أن تفرّا من كل العيون، أن تكونا وحيدين، وجهاً لوجه، أمام البحر والسماء والله والنجوم والصمت والأمواج، تضع يدها الصغيرة البيضاء على ذراعك المشعر العاري وتمسد شعرك الخشن بحنان، ثم تقرب شفتيها منك وتطبع على خدك قبلة هامسة.

تحس بأنفاسها تلسع رقبتك، تلتفت إليها وتبتسم، تتمتم شفتاك بسؤال عن الصحة والأحوال، تلقيه بطريقتك الخاصة التي تختزل فيها الكلمات، وتشد على مخارجها، وأحياناً تغنيها فلصوتك عذوبة نادرة، كنت تعرف ذلك جيداً وأنت تخطو مع رفاقك على النهر في تلك الليالي المقمرة، وتطلقه بكل طاقتك وعذابك وبكل أشواقك الحبيسة، فينصت لك الأصحاب ويطأطئون رؤوسهم مذعنين، وبينهم من يطفر الدمع من عينيه، فلكل واحد منكم حكاينه الموؤودة في هذه المدينة الضنينة المغلقة على طقوسها واحتشامها الثقيلين.

تتأمل عيناك الطريق، ها أنت الآن في قمة زهوك، وها هي المرأة البعيدة الصعبة المنال معك الآن، لقد قاتلتها ذات يوم، فاجأتها قبل أن توجه إليه طعنتها الأولى، فكان أن أشهرت بوجهك كل أسلحتها واعتقلت تلك الحرب الصامتة التي زرعت الاحتقان في الصدر والحمرة في العينين، ومن ثم رميتما أسلحتكما، كان اتفاقاً صامتاً، وهدنة بلا بنود، أرجع كل منكما سيفه إلى غمده، وامتدت يداكما لتتصافحا بود، وهكذا امتد ذلك الخيط الصغير، من العطر والحرير والمواويل وكان على القلوب أن

تحتضنه ولا تتركه يتبدد هباء.

وردت على تساؤلك بتلك اللثغة التي أحببتها، ثم ترفع ذراعك وتمسد شعرها بشفتيها المورقتين. وتضع رأسها على يدك وتحدثك عن الأمان الذي يفرش ظلاله عليها وهي معك، فأنت ملاذها وميناؤها وبيتها ودمع عينيها في هذه الوحشة التي تحاصرها وهي تصطلي بجحيم الوحدة والفراغ حيث أحالتها الأيام إلى آلة تدور وتدور بلا توقف، بين البيت والعمل، بين السينما والصديقات، بين الليل والنهار، بين الحلم والواقع، بين اليفاعة والذبول.

تضغط أكثر على محرك السيارة عندما انعطفت في الطريق الخالي وهبت مصفقة:

- انه طريقنا.

تردد في سرك: حقاً انه طريقنا، كم قطعناه؟ عشرات، بل مئات المرات، وأنا أدور فيها ذهاباً وإياباً في هذه المدينة التي لم أجد فيها أربعة جدران تضمنا».

منذ شهور وهذا الدرب لكما، ميدانكما الفسيح الذي لا تعرفه السيارات الأخرى الالماماً.

وعندما تصل الشاطىء تضغط على الكابح فتتوقف السيارة، تلتفت إليها وتلتفت إليك وكانت ما زالت ممسكة بذراعك، محتمية بك من وحدتها ومن وحشة أيامها، من انكساراتها وحياتها الملأى بالقتامة والحزن.

- ٤ -

في العينين دمعة حبيسة، وفي الصدر اختناق تهتز له الأضلاع، تعتري ذلك الوجه الباسم رعشة ذبول، ينط ذلك الأنف الدقيق، يزداد تألق الدمع في العينين، يتطلع من وراء مقود السيارة إلى الشاطىء المظلم الذي تصفعه أمواج البحر الثائرة بينما انسحب آخر ضوء من قرص الشمس الذي كان قبل قليل يتلألأ في دكنة السماء، الغابات في الخلف تغط في الصمت والعتمة وينطبق الليل الكثيف على زقزقة الطيور التي كانت تعج في المكان وهي تبحث عن مستقر لها بين أغصان الأشجار، يلتفت إليها وينظر بمودة إلى وجهها الذي سقط عليه نور السيارة الداخلي.

- مالك؟

وترد بصوت هامس:

- أنت.

ويهب مستفسراً:

- ماذا صنعت لك؟

ويكبر الحزن في صوتها وهي تقول:

- سترحل من هنا يوماً.

- هذا أمر يجب أن تعرفيه.

وتقول بأسى بالغ:

- ولكن هل فكرت كيف ستكون حياتي بعدك؟

ويأخذه الوجوم الأبكم، فتردف وهي تعض على اصبعها وتمد رأسها إلى الأمام فينثال شعرها الأشقر القصير على جبينها، يضع يده على رقبتها، ويمسدها قليلاً فتستسلم له، تزفر بحرقة وتقول:

- لا أريد أن أصدق بأنك سترحل يوماً.

- ان وجودي هنا وقتي كما تعرفين!

- أعرف ولكنني أدمنت مرآك، لا أريد أن أتصور حياتي الأولى، لا أريد أن أعود إلى القحط والجحيم.

ثم رفعت رأسها ونظرت إليه، منحته ذلك الوجه الذي أحب كل نأمة فيه، العينين ببريقها الأخاذ وتلك الهالة البنية التي تلون بؤبؤيها، والأنف الدقيق، الجبين السمح والفم الحاني المرتعش الشفتين، انها عالم من الود والألفة، من الدفء والصفاء، لم يعرفه يوماً وهو ينتزع جسده من آبار الجدب القديم، من عصور الحرقة والبلاء، وها هو مزروع الآن في هذا الفردوس الظليل، تتجدد كل خلية فيه، وتورق أشجاره الذابلة وترفع رؤوسها المنكسة بيأس واستسلام.

- تعالي

ويأخذها إلى صدره، البحر يزداد هديراً، ويرتطم رذاذ أمواجه بزجاج السيارة الأمامي، يعلق ضوء السيارة الكاشف ثم يطفئه، ويتابع مرأى الأمواج وهي تنهد بقوة.

- ٥ -

تسحب رأسها منه ثم تمد يدها إلى حقيبتها وتخرج منها زجاجة صغيرة، وتردد بكلمات مسرعة:

- أنظر.

ويقف مشدوهاً أمام ما تفعله ويتساءل:

- ماذا؟

ويزداد صوتها تهديداً وارتجافاً:

- هذه زجاجة حبوب منومة، سأبتلعها كلها وأنتحر إن تخليت عني يوماً.

يبتسم لها، ويضع يده على رأسها، يعيد الخصلات الثائرة إلى مكانها، ثم يأخذ الزجاجة من يدها وهو يقول:

- أنت مجنونة.

ويردف:

- إنك غارقة في أفكارك السوداء.

ثم يمد يده من نافذة السيارة ويطوح بالزجاجة في البحر، بعد ذلك يمسح يديه ويقول:

- والآن انتهى كل شيء، لتكن أفكارك بيضاء دوماً، أما مثل هذا العمل فلا أريدك أن تعودي إليه.

وتغرق في النحيب، وينصت إلى نحيبها بعض الوقت، انها ملأى بأحزان قديمة، تعسكر في صدرها منذ الطفولة وعبثاً يحاول انقاذها منها.

يقول لها بصوت محمل بالسماحة والطيبة:

- عليك أن تكفي عن البكاء، الحب فرح، ألم نتفق على

هذا؟

وتحاول أن تنتزع صدرها من النحيب وهي تقول له:

- أحس بأنني أعيش في وهم.

ويظل يربت بيده على مقود السيارة وهو يتطلع إلى الأمواج، يضغط على زر كاسحتي المطر لتبعدا الرذاذ المتراكم على زجاج السيارة، ويقول وهو يحاول الاحتفاظ بهدوئه:

- ماذا تريدين؟

وتهز رأسها حيرة وتقول:

- لا أدري!

- لديّ حل.

- ما هو؟

- نقطع علاقتنا منذ اليوم.

وينظر إليها محاولاً أن يبحث عن صدى قراره على وجهها، ولكنها تظل صامتة فيضيف:

- نحزن أسبوعاً أو اسبوعين، شهراً أو أكثر، بعد ذلك تأخذنا الحياة ونغرق في مجراها.

وتقول له بعد أن ترفع رأسها وتتطلع إلى كاسحتي المطر:

- من منا المجنون؟

ويقول مذعناً:

- كلانا

وتهب ضاحكة:

- غريب!

- ماذا؟

- كل شيء، أنت وأنا ويوم لقائنا.

ويهز رأسه موافقاً:

- أعرف ذلك.

- وتعرف أنني لا أستطيع الابتعاد عنك، لا يمكنني أن أتصور هذه المدينة بدونك، انني أتساءل كيف ستبدو وأنت لست فيها؟

- ٦ -

يوقف كاسحتي المطر عن الدوران ثم يفتح باب السيارة ويخرج منها، يقف بكامل طوله على الشاطىء وأمامه الأمواج وقدماه مغروستان في الرمل. يخلع حذاءه ويرميه في السيارة ثم يرفع أذيال بنطاله إلى أعلى ويدلف في الماء.

يحتضن الموج ويقبل ماءه المالح، لقد تحدث عن البحر دوماً، وحلم بأن يراه، كان لا يعرف إلاّ نهر مدينته الصغير وجموع النسوة الموزعات على شاطئيه ليغسلن الأواني والثياب، يعرف انحداره السريع أيام الفيضان ووجوه أصحابه الغائبة التي جرفها في مجراه وترك أمهاتهم حزانى ينحن طوال الليل وهن هائمات على الشاطىء فيهدم نحيبهن أفراح المدينة الآمنة ويجعلها تغط في الحزن والرماد.

ها هو الموج الكبير، يرتفع أعلى من قامته، وها هو الرمل الدقيق، وتلك المرأة الصافية التي تتأمله وهو يمارس جنونه الصغير.

يهتف لها:

- تعالي.

تفتح باب السيارة هي الأخرى وتأتيه. يعطيها يده فتدخل معه في لجة الموج.

- تونس -

الثقافة الجديدة

مجلة فكرية ابداعية عربية

تصدر في المغرب

تشرف عليها جماعة من المثقفين التقدميين المغاربة

المدير المسؤول : محمد بنيس

الاشتراك في الدول العربية وأوروبا ٥٠ درهما أو ما يعادلها

اشتراك المؤسسات المساندة ١٥٠ درهما أو ما يعادلها

العنوان : ص.ب ٥٠٥ الحمدية ـ المغرب